جمال التشبيه التمثيلي وخصائصه في القرآن الكريم

د. يعقوب الحاج عبد الله
08058035554 Yaqub.abdullahi@yahoo.com

مقدمة:

الحمد لله الذي نزل أحسن الحديث كتابا متشابها، والصلاة والسلام على الرسول النبي الأمي محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على رسوله بلسان عربي مبين في عهد نضج فيه عقلية العرب من حيث فصاحة اللفظ وبلاغة القول، فعجزوا عن الإتيان بمثله، وقصروا عن بلاغته، وشهدوا له بالتفوق في التركيب والمعنى. بهذا ثبت إعجاز القرآن الكريم الذي أطال علماء البلاغة الكلام في وجوهه باختلاف أقوالهم، فمنهم من رده إلى إخباره عن الغيوب، ومنهم من رده إلى بديع نظمه وعجيب تأليفه، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[١].

فللقرآن الكريم فضل كبير في نشأة علم البلاغة، وفي ظل بحث عن إعجازه وبلاغته نشأ وترعرع، وعلى آياته بنيت قواعدها وأحكامها. والتشبيه التمثيلي أحد أنواع التشبيهات القرآنية تجذب انتباه القارئ كلما مر به، ويهزه تصويره هزا. يقف هذا البحث على جمال التشبيه التمثيلي وخصائصه في القرآن الكريم، بإجلاء جوانب بلاغته التي تؤكد إعجاز القرآن كما درسه أعلام البلاغة. فيتناول البحث الحديث عن مكانة التشبيه في علم البيان، والتشبيه التمثيلي في الشعر العربي، وأنواع التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم، والوقوف على خصائصه في القرآن الكريم.

مكانة التشبيه في علم البيان

علم البيان هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد في صور مختلفة متفاوتة في وضوح الدلالة.[٢] ويبحث في التشبيه والمجاز والكناية.

والتشبيه: هو عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما في معنى ما بأداة ملفوظة أو ملحوظة.[٣]فللتشبيه موقع حسن وشرف أعلى في علم البيان، وذلك لإخراجه الخفيإلى الجلي وتقريبه البعيد، ويزيد المعاني رفعة ووضوحا ويكسبها جمالا وفضلا، وله باب واسع في اللغة، وأكثر

الفنون البلاغية دورانا واستعمالا في الأساليب العربية، وكان من أوائل الموضوعات التي اهتم بها النقاد والبلاغيون.[٤]

وتظهر مكانة التشبيه في علم البيان في أنه أم باب البيان، وعليه بني المجاز، فلا بد للتعرض لدراسة التشبيه من أجل فهم المجاز وقبل دراسته. والتشبيه التمثيلي نوع من أنواع التشبيه، وهو التشبيه الذي كان وجه الشبه فيه صورة مركبة منتزعة من متعدد.[٥] وله فضل ومزية على غيره من التشبيهات، لأنه يقدم التشبيه في صورة ممثلة مستحوذة على الحواس والعقل معا، ويظهر المعنى المراد في صورة معرضة على المسرح. مثال ذلك قوله تعالى □□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□ (البقرة: ٢٦١).

يشبه الله حال من ينفق في سبيله ابتغاء مرضاته ثم يلقي جزاء وافيا بهيئة الحبة أنبتت سبع سنابل وفي كل سنبلة مائة حبة، فصار مصير حبة واحدة حبات مضاعفة لاعدد لها. فهذا التشبيه أبلغ من غيره، وأعظم أثرا في المعاني وأوقع في النفوس، وذلك لمجئ التشبيه في صورة رائعة متمثلة أمام العينين.

وقبل أن نقف عند التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم سننظر في ورود هذا التشبيه فى شعر العرب، لا للمقارنة بين نظم القرآن وأشعار العرب، إذ الفضل بينهما واضح، وشتان بين ما ثبت إعجازه وما ليس بمعجز، لكن لنثبت أنه من أسلوب كلام العرب منذ القديم.

التشبيه التمثيلي في الشعر العربي:

يعد التشبيه من أكثر موضوعات علم البيان ورودا في كلام العرب وشعرهم، وفيما يلي من الأشعار سننظر إلى التشبيه التمثيلي وبلاغته.

قال ابن المعتز:

كـــأن سماءنا لما تجـــلت ... خلال نجومها عند الصباح
رياض بنفسج خضل نداه ... تـــفتح بينه نور الأقاحي[٦]

يشبه الشاعر حال السماء الصافية بعدما انقشعت الغمامة وظهر في خلاله النجوم وقت الصبح، بحال رياض البنفسج المبتل بالماء، وقد تفتحت في أثنائه أزهار الأقاحي. فوجه الشبه في التشبيه صورة منتزعة ومركبة من متعدد،يعطي المتلقي خلفية عن وجه الاشتراك بين الطرفين.

ومن ذلك قول البحتري:

دان إلى أيدي العفاة وشاسع ** عن كل ند في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوؤه ** للعصبة السارين جد قريب[٧]

وصف البحتري الممدوح بأنه قريب وبعيد معا، وهذا مالا يكاد يقره العقل أو تؤمن به النفس لغرابته، فأراد إقناع السامع فشبهه بالبدر، وأنه مع شاسع بعده وفرط علوه ماثل بين أيدينا بضوئه، فهو أيضا قريب وبعيد، فصار المعنى واضحا ومقبولا.

وقال ابن الرومي:

أول بدء المشيب واحدة ** تشعل ماجاورت من الشعر
مثل الحريق العظيم تبدوه ** أول صـــول صغيرة الشرر[٨]

شبه الشاعر ظهور الشيب في الرأس شعرة بعد شعرة حتى تعم جميع الشعر ببياضه بالحريق العظيم الذي لا يترك الحرث ولا النسل إلاحرقها، وكان في مبدئه صغيرا.

جاءت التشبيهات السابقة كلها على صور مختلفة كما رأينا، وكل واحدة منها رائعة ومتقنة في مكانها لمجيء المماثلة فيها على هيئة مسرحية منبسطة. وبعد هذا نشرع في دراسة التشبيه التمثيلي في آيات القرآن الكريم، مبينا جماله وخصائصه فيها.

التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم

لتسهيل الدراسة قسمنا التشبيه التمثيلي في القرآن إلى التشبيه المحسوس بالمحسوس والمعقول بالمحسوس. فالمحسوس هو ما يدرك بالحواس الخمسة، أما المعقول فمن الأمور المعنوية التي لا تدرك بالحس:

التشبيه التمثيلي المحسوس بالمحسوس:

ومن ذلك قوله تعالى: [illegible] (البقرة:٢٦٤).

شبه الله المنفق ماله في الصدقة رئاء وسمعة بحال الحجر الأملس وقد غطته قشرة رقيقة من التراب، يظنه الناظر صالحا للزرع، لكن وابل المطر لم يلبث أن يزيل هذه القشرة فيبدو الحجر على حقيقته، ليس موضعا للخصب ولا للإنبات، انظر كيف خاب أمل قاصد هذا الحجر للزرع، فإنه لا يكاد يصدق عينيه حين وصل إلى الحجر بعدما نزل عليه المطر، ففي التشبيه روعة وإقناع فى صورة إحيائية.

ومنه قوله تعالى: [illegible] (البقرة:٢٦٥)

شبه الله سبحانه حال من ينفق فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ثم يلقى جزاء وافيا بحال بستان مستقر على مرتفع من الأرض يسقى بماء المطر، فجاء البستان بثمره مضاعفا. أوضح التشبيه ما ينتظره المنفق ابتغاء مرضاة الله من أجر كثير وثواب جسيم مقابل ماله القليل، فالتشبيه صورة جميلة ماثلة أمام العين، وممتعة للفكر والوجدان، تبقى أجزاؤه مشخصة في الذهن.ومنه قوله تعالى [illegible] (العنكبوت:٤١).

شبه الله تعالى حال المشركين في عبادتهم غير الله واعتقادهم فيآلهتم الخير بحال العنكبوت الذييتعب نفسه في بناء بيت واهن يأويإليه. انظر كيف بين التشبيه التمثيلي عاقبة عبادة المشركين واعتقادهم، فهو تصوير قريب إلى النفس، ساطع الحجة، قاطع البرهان لا سبيل إلى إنكاره.

ومنه قوله تعالى [illegible] (يونس٢٤).

فالمشبه في هذه الأية هو حال الدنيا فيإقبالها ونضرتها وغرور الإنسان بها وإسراع الزوال إليها.والمشبه به هو حال النبات وقد اختلط به الماء فنما وازدهر حتى تعلق به أصحابه وظنوا أنه أصبح بمأمن من الآفات،فإذا هو ييبس ويزول ويصبح كأن لم يكن.

فحال المشبه كما في الأية معروفة للناس، لكن لفرط حبهم للدنيا وطمعهم عليها جعلهم لاينتبهون إلى غرورها وزوالها، لكن هذا التشبيه يكون تذكرة وتنبيها للغافل ليواجه تحديات هذه الحياة الزائلة والاستعداد لما بعدها بصالح الأعمال.

ومنه قوله تعالى [illegible] (النور:٣٩....٤٠)

شبه الله سبحانه وتعالى هيئة أعمال الكفار التي تظهر في أعينهم جميلة، لكنها في الحقيقة لا خير فيها ولا ثواب عليها بهيئة السراب بصحراء واسعة يظنه الظمآن ماء،فيجهد نفسه في الذهاب إليه، وإذا وصل إليه لا يجد شيئا، ثم شبه هيئة أعمالهم مرة ثانية بصورة الظلمات الكثيفة في البحر المتلاطم الأمواج المتداخل بعضها في بعض المظلل بالسحاب، بحيث إذا أخرج الإنسان يده لايراها من شدة الظلمات.

فالتشبيه صورة موحية جميلة متلائمة الأجزاء، تعكس منتهى خيبة الكفار يوم القيامة كما تظهر بشاعة وشناعة موفقهم في يوم الحشر.

انظر في الآيات السابقة كيف شبه الله سبحانه صور أشياء حسية بصور أخرى حسية جميلة تمثل حقيقة حال المشبه في الصورة الروائية المشاهدة أو القصة الممثلة، تحيط بالجوانب الأساسية في تكوين المشبه والمشبه به، تشغل عقل القارئ، وتجذب عينه إلى مشاهدة لوحة مسرحية في التشبيه.

التشبيه التمثيلي المعقول بالمحسوس:

كذلك نجد في القرآن الكريم تشبيه أشياء معنوية بصور حسية ومن ذلك: قوله تعالى: [illegible](الحج:٣١).

يشبه الله حال من يشرك بالله في أنه لا بقاء له ولا استقرار بحال من سقط من السماء، فلا يستقر على الأرض لحظة بل الطير يتخطفه والريح تهوي به. فالتشبيه صورة مفزعة ومدهشة لأننا نشاهد ما يلحق من يسقط من جبل شاهق أو شجرة مرتفعة من الدمار والهلاك، والأكبر من ذلك من يسقط من السماء العالية البعيدة.

ومنه قوله تعالى: [illegible](الأنعام: ٧١).

يشبه القرآن حال من يشرك بالله بعد التوحيد بحال من أضلته الشياطين في الصحراء، وله أصحاب يدعونه إلى الطريق والنجاة، وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء حيران، لايدريأي الفريقين يجيب، فالتشبيه تمثيل مقنع يوضح عاقبة من بدل دينه، في صورة هائلة، مثيرة للعاطفة وملهبة للانفعال.

ومنه قوله تعالى [illegible] (الرعد: ١٤).

شبه الله تعالى حال عباد الأصنام حينما يدعون آلهتهم ولا يرجع هذا الدعاء عليهم بفائدة بحال من يبسط كفيه ا إلى الماء ليشرب منه، فلا يصل الماء إلى فمه مادامت كفاه مبسوطتين.

ومنه قوله تعالى [illegible](الجمعة: ٥).

شبه الله سبحانه اليهود الذين أوتوا التوراة ثم لم يعملوا بما فيها بالحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة لا يعلم ما فيها ولا ينتفع منها ولا يكون له منها إلا التعب والنصب. فالتمثيل في الأية رائع ورائق، أظهر خسارة اليهود وقصورهم في عدم انتفاع بما في كتابهم.

فقد تبين في الآيات السابقة قوة هذا التشبيه في تصوير المعنويات فى صور حسية ما يقرب المعنى ويجسمه أمام القارئ في صورة جميلة شيقة مقنعة، ويعرض الحجج بطريقة لا تقبل الشك ولا التدحيض. ونستلخص من الدراسة السابقة بعض خصائص التشبيه التمثيلي في القرآن.

خصائص التشبيه التمثيلي في القرآن:

١- استمداد التشبيه التمثيلي القرآني من الطبيعة

ندرك أن التشبيه التمثيلي في القرآن مستمد من الطبيعة الحية، قريبة وشاخصة بين الناس، ماثلة أمام العين، يعيش الناس معها ويحتاج إليها في كثير من أوقاته، فيعرف أثرها وقوتها في حياته، كما يعرف تجليات سبحانه في تسخيرها وتسييرها، وبهذا لا تجد النفس مجالا للتردد في قبوله

أو الشك في معقوليته وهو مما يجعله خالدا خلود الزمن دائما دوام الدهر، لا يختلف فيه الأذواق باختلاف العصور، بخلاف التشبيه الذي يصدر من الإنسان الذي كان علمه بالطبيعة محدودا،فلا يكون الأذواق في قبوله سواء، لاختلاف البيئات والثقافات والأزمنة.

٢- الظهور والوضوح:

الظاهر من التشبيه التمثيلي في القرآن أنه ينقل النفس من شيئ خفي إلى شيئ جلي، ويدني البعيد ويجلي الغامض بتصوير الأمور المعنوية بالأشياء الحسية أو الأمور المحسوسة بصور حسية أشدة قوة ووضوحا منها، كل ذلك يجعل المطلوب ماثلا أمام العينين، وتطمئن به النفس، وتهدأبه القلوب، وينفعل به الشعور. وإذا كان الظهور والوضوح من سمات التشبيه أساسا فإنه في التشبيه التمثيلي أشد وأقوى كما أن التشبيه التمثيلي القرآني أجل وأعلى مرتبة من غيرها في الظهور والوضوح.

٣- التشويق.

وربما هذا من أوضح خصائص التشبيه التمثيلي القرآني، فهو تمثيل محكم ومنبسط، عامر بالجمال والتشويق، يبث في النفوس الشوق وينمي في القلوب الرغبة، فلا يمر القارئ بالتمثيل القرآني إلا توقف وتريث منقبا ومتمتعا بأجزائه وتأليفه، ولا تمر به النفس مرا سريعا، بل ترغب في تكراره والوقوف علىتمثيله، ولا تزال الصور التمثيلية باقية في ذهنه، شأن الأفلام والمسرحيات في تلهب رغبات الناس وميولهم في مشاهدة الحوادث.

٤- إقناع المتلقي:

إن ما يتميز به التشبيه التمثيلي القرآني من الوضوح وإجلاء الخفي البعيد في صورة قريبة، واستمداده من الطبيعة المحيطة وإحكامه فيالتصوير يجعل القارئ مقتنعا ومسلما بمضامينه، ولا

يترك مجال للشك في معانيه ومراميه، إذ الحقائق ممثلة أمام القارئ والمعانيمجسمة أمام عينه، وليس الخبر كاليقين. فصورة السراب التي شبه الله بها أعمال الكفار لكونها مستمدة من الطبيعة الحيطة التي تعود المسافر على رؤيتها ويعرف ما يترتب على رؤيتها من خيبة الأمل مع طول الرجاء والرغبة في نيل المراد، فالإقناع فيما يثبته التشبيه لا يقبل الشك ولا التردد.

٥- قوة التشبيه التمثيليفي الحجية

هذا التشبيه وجه من وجوه إقامة الحجة والدليل على المتمردين أو إقامة حجة للمطيعين، فقد أقام حجة على المنافقين في عدم إفادة ماهم فيه من النفاق، ومثال ذلك حال المنافقين الذين يكونون في الأمن في الدنيا أما في الآخرة فلايجدون مما كسبوا في الدنيا نفعا، حيث شبههم الله بمن كان في فلاة مظلمة، ويحيط به المخاوف فأوقد النار وصار مطمئن البال فإذا بمطر شديد وانطفئت ناره ورجع في الخوف، قال تعالى: □□□□□□□□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□ □□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□□□□□□□ □□□ □□□□□□□□□□ □ □□□□□□□□□□□□□□ □□□□□(البقرة:١٧) فذلك حجة قاطعة على خيبة الأمل.

الخاتمة

بعد هذه الجولة السريعةحول التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم تبينت مكانة التشبيه بوجه عام والتشبيه التمثيلي بوجه خاص، تلك المكانة التي أحله درجة مرموقة ومحترمة بين علم البيان. أما جمال هذا التشبية وخصائصه في القرآن الكريم فقد اتضحا من خلال دراستنا، وتنحصر الخصائص في استمداد هذا التشبيه من الطبيعة الحية المحيطة، ما يجعله صالحا لكل عصر ومكان، وكون التشبيه مشتمل على الصور التبيانية الممثلة، ثم إقناع المتلقي وتشويقه المستمرين في ظلال التشبيه، وبعد ذلك كلهحجة ساطعة يتركه التشبيه، والتي لا تقبل التدحيض ولا التعديل لمعقوليته وإقناعه.

الهوامش

١- أبوبكر محمد الباقلاني، **إعجاز القرآن**،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت، ١٩٨٦م،ص٧٣

٢- أبو موسى، محمد، **التصوير البياني**، ط١، مطابع الشروق،بيروت،١٩٧٨م،ص٢١

٣- أحمد الهاشمي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، غير مؤرخ، ص٢٤٧

٤- عبد الفتاح لاشين، **البيان في صوء أساليب القرآن**، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥م، ص١٦

٥- الخطيب القزويني،**الإيضاح في علوم البلاغة**، ط٤، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٥م، ص٣٢٩

٦- أحمد المطلوب وكامل حسن البصير، **البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي،١٩٨٢ بغداد، ص٢٩٨**

٧- أحمد المطلوب وكامل حسن البصير، المرجع نفسه، ص٢٩٩

٨- عبد العظيم المطعني، **التشبيه والتمثيل بين عبد القاهر والخطيب**،ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٧م، ص٢٧